التناسب وأثره في بناء معاني القرآن الكريم سورة النساء أنموذجاً

Proportionality and its impact on building the
meanings of
The Holy Quran Surat Al-Nisa as a model

إعداد

أ.علي خيري محمد علي

باحث دكتوراة في قسم اللغة العربية تخصص البلاغة والنقد

كلية الآداب - جامعة دمنهور

أ.م.د. محمد عبد الفتاح النجار

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

كلية الآداب - جامعة دمنهور

أ.د. إيمان فؤاد بركات

أستاذ الأدب والنقد ورئيس قسم اللغة العربية

وكيل الكلية للدراسات العليا والبحث العلمي

دورية الانسانيات - كلية الآداب - جامعة دمنهور

- العدد (65) - الجزء الأول - لسنة 2025

التناسب وأثره في بناء معاني القرآن الكريم سورة النساء أمودجا

أ.علي خيري محمد علي

أ.د. إيمان فؤاد بركات

أ.م.د. محمد عبد الفتاح النجار

مما لا شك فيه أن كتاب الله (عز وجل) ، الذي أنزله على نبيه مُحَمَّد (ﷺ) أصح الكلام ، وغير خاف أن دراسة بناء معاني السور القرآنية من أعظم غايات الدرس البلاغي الحقيقية أن كتاب الله معجز في كل شئ ، ألفاظه ، ومعانيه ، بلاغته ، تناسبه ، موضوعاته ، نظمه ، فتجد أن جميع سور القرآن نسيج واحد ، كأنها بنیان مرصوص ، جواهر عقد مترابطة بجوار بعضها ، لا تجد فيها نفور أو شذوذ ، وكأنها سورة واحدة يترابط آخر كل سورة مع بداية ما يليها ، وأول السورة مع اسمها ، ومطلع السورة مع خاتمتها ، تناسب وترابط بديع لا يملك الإنسان إلا أن يسلم بأنه تنزيل رب العالمين ، فما أجمل القرآن ! ترابطا ، انسجاما ، تناسبا ، ألفاظا .

إن المتأمل لكتاب الله لا ينفك إلا أن يقف عاجزا أمام شموخ الآيات وترابط المعاني والكلمات ، وتناسق الألفاظ الأواخر والبدايات ، لا يخرج عن كونه سر من أسرار المعجزات ، بديع لا يضاهيه علوم الكونيات .

لذا أردت أن ألفت النظر ، وأجعل ومضات على الطريق تشع نورا مقتبس من كلام الله ، وألفت النظر على تناسب ألفاظ القرآن ومعانيه فاخترت سورة لعلها تكون المنجية والشافعة ، فذكرت اسمها ومكان نزولها ووجه التسمية وكيفية التناسب بينهم جميعا ، وأردفت ذلك بمحاور السورة وترابطهم ، وتناسب الألفاظ ما للجمل والتراكيب معهم ، والحديث العذب الشيق عن وجوه البلاغة وعلومها الثلاث ، وما بين كل نوع من تناسب مع السورة ، إن التحليل البلاغي لكل . أبواب البلاغة كشف عن جوانب المعنى ؛ فيه نَعْرِفُ - بجلاء - جمال الألفاظ وجلال المعاني ، وهو من أعظم مظاهر انسجام النص القرآني ، وتماسك بنيانه ، وإحكام آياته ، وتناسب أجزائه ، به تتجلى لطائف الصلوات ودقائق المناسبات ، وتظهر الصلة بين العبارات والآيات ، وتبدو قوة التلازم بين بداية الآية ، وما تحويه من المعاني .

والمقصود بتناسب المعاني وعلاقتها : ترتيب الأفكار والموضوعات في السورة في بناء واحد ، واتصالها وترابطها ، وتولد بعضها من بعض ، وتوزيعها بين ما هو أساسي وما هو فرعي ؛ لتحقيق المقصد الرئيس الذي جاءت السورة من أجله ؛ ولذلك ندرس السورة في بناء واحدٍ مُحكم البنیان ؛ لتكون الآيات أجزاء ذلك البنیان ولبناته .

ولهذا البنيان ركائز هي المعاني الرئيسة والمقاصد الأساسية ، التي تفرعت منها معان أُخرى فَرَعِيَّةٌ ؛ فهي دراسة تهتم بالبحث عن الروابط الداخلية للنص القرآني ، والكشف عن مقاصدها الأساسية ، وموضوعاتها الفرعية ، وتماسك معانيها وموضوعاتها ، وترتيبها على بعضها ، وكذلك التشابك بين تلك المعاني ، إنها تتبع لسير المعاني في السورة بعد الدراسة البلاغة الآيات ، والتأمل في العلاقات بينها .

وللوصول إلى هذا التسلسل لا بُدَّ من الوقوف مع السورة الكريمة ، من حيث اسمها ؛ فهذا الاسم قد يكون مفتاحا لمعرفة مقاصدها ، والربط بين موضوعاتها ، ولا بد من دراسة محاور السورة القرآنية ، وعلاقاتها بموضوع السورة .

ومقصد السورة هو مغزى السورة ، الذي ترجع إليه معاني السورة ومضامينها ؛ فهو الجامع لمعانيها وعلاقاتها ، وكذلك بداية السورة ومطلعها ؛ فقد يكون مطلع السورة مفتاحا للمعرفة مقصدها ؛ إنها براعة الاستهلال التي تمتد عبر محاور السورة .

لذا يمكننا أن نستنتج أن سورة النساء تمثل نموذجاً رائعاً للتناسب والتوازن في القرآن الكريم. فقد تناولت السورة موضوعات متعددة تتعلق بالأسرة، والحقوق، والعدالة الاجتماعية، مما يعكس أهمية هذه القضايا في بناء مجتمع متماسك وعادل .

وتجدر الإشارة إلى ضرورة الاطلاع على الآثار الواردة عن التابعيين والسلف الصالح في بيان ما أنزلت فيه السورة ؛ ممَّا يَكُونُ منطلقاً لتحديد مقصدها ، مع النظر إلى كتب التفسير المختلفة ، وأقوال العلماء والمفسرين في مقاصدها وأغراضها ، ومعرفة أوجه الاستدلال بالسورة ، والموضوعات التي وردت فيها ، والقضايا التي عالجتها ، والأحكام والتشريعات الواردة فيها .

وكان من الضروري دراسة ما فيها من وجوه بلاغية ، ولما جاءت على هذا النظم دُونَ غيره ، والعلة من مجيئها بالأسلوب الذي جاءت عليه ؛ لتحديد الأغراض الرئيسة عن طريق تحديد الآيات التي تدور حول فكرة بارزة ، والبحث عن امتداد تلك الأفكار في السورة ، ثم الوقوف على علاقات المعاني في السورة ، وكيفية بنائها ، وربط ذلك بأسباب النزول وزمانه أو مكانه ، وموقع وترتيب السورة في الكتاب المجيد ؛ فترتيب السورة في المصحف ترتيباً توقيفياً من رسول الله (ﷺ) ؛ وذلك لحكمة وغاية ؛ فسور القرآن الكريم يُكْمَل بعضها بعضاً ، ويترتب بعضها على بعض

وكان حري بنا التطرق إلى موضوع السورة ، وهل تلك الموضوعات متناسبة مع سورة أخرى ، وأخيراً خاتمة السورة ، ومناسبتها للمطلع ؛ فقد تفتتح السورة بمعنى ما ، ويظل هذا المعنى حتى ينتهي بخاتمتها .

ولذلك ينبغي الوقوف على المقصد العام للسورة نجد أن لكل سورة هدف عام ، وغرض محوري تسير عليه السورة وربما سميت ه كما فى هذه السورة ، وهو الذي ينعقد عليه أغراض فرعية ، مع البحث عن علل ترتيب تلك الجمل والمعاني ، ومجيء بعضها إثر بعض في هذا النسق أو السياق المنتظم ، وعند دراسة كل مقصد من مقاصد السورة ، لا بد من الربط بينه وبين المقصد السابق عنه ، والتالي له .

فعند الوقوف بمقصود الآيات ، وما تحمله من معان . و نستطيع أن نرى أن سورة النساء أولها ذكر الخلق والوصية بالتقوى وبالرحم ، وأن الله رقيب علينا مطلع على أحوالنا ،وفي خاتمتها يذكر تعالى بالرحم والميراث وأن الله هو الرقيب المحاسب . سورة النساء هي السورة الرابعة في القرآن الكريم، ولها أسماء منها النساء الكبرى ، وتتناول العديد من الموضوعات المهمة المتعلقة بالأسرة والمجتمع، بما في ذلك حقوق المرأة، والمواريث، والعلاقات الاجتماعية. التناسب في سورة النساء يظهر من خلال تنظيم الآيات وترابط الأفكار التي تتناول قضايا متعددة ولكنها مترابطة.

بدأت السورة بتأكيد على أهمية العدل والمساواة بين الناس، وتبرز حقوق المرأة وواجباتها في المجتمع. كما تتناول موضوعات مثل الزواج والطلاق والمواريث، مما يعكس التوازن بين الحقوق والواجبات. لقد بينت السورة أحكام النساء والعدل وأحوال المجتمع وحكمه وذكرت عددًا من الآداب العامة ، وأحكام الأسرة ، والزواج والخلاف ، وتكلمت عن المنافقين والتحذير منهم ،وكيفية التعامل مع غير المسلمين .

وأظهرت الفارق ما بين النفاق والإسلام ؛ فجعلت من يضر الإسلام والمسلمين في حزب يقوده الشيطان ، في مقابل حزب آخر لا يُوالي غير الله سبحانه وتعالى) ، وهُم حزب الله تعالى

وأشارت إلى أنَّ المُسلم الحق يتبع دينه ، ولا يُوالي أحدًا غير الله تعالى ؛ فالمسلم لا يُحِبُّ إلا من يُحِبُّ الله ورسوله .

لقد أظهرت الآيات كيف أن التناسب بين الحقوق والواجبات يسهم في تحقيق الاستقرار النفسي والاجتماعي للأفراد. كما أن السورة تبرز أهمية العدل والمساواة بين الجنسين، مما يعكس رؤية الإسلام الشاملة للإنسانية.

علاوة على ذلك، فإن التناسب بين الآيات والأحكام الشرعية يعكس حكمة التشريع الإسلامي وقدرته على التكيف مع احتياجات المجتمع. إن فهم هذا التناسب يساعد المسلمين على استنباط الدروس والعبر التي تعزز من قيم التعاون والتسامح.

التناسب يظهر أيضًا في كيفية تناول السورة لمختلف القضايا الاجتماعية والأخلاقية، حيث يتم الربط بين القيم الإسلامية الأساسية مثل العدل والإحسان وبين تطبيقها في الحياة اليومية.

بشكل عام، يمكن القول إن سورة النساء تعكس رؤية شاملة للتوازن الاجتماعي والأخلاقي، مما يجعلها نموذجًا للتناسب بين الحقوق والواجبات في الإسلام.

التناسب في القرآن الكريم هو مفهوم يشير إلى التناسق والتناغم بين الآيات والسور، حيث تتداخل المعاني والأفكار بشكل يبرز بلاغة النص القرآني وعمق رسالته. يُعتبر التناسب من أبرز خصائص القرآن، إذ يعكس وحدة الموضوعات وتكاملها، مما يسهل فهم الرسالة الإلهية ويعزز تأثيرها في النفوس.

يتجلى التناسب في عدة جوانب، منها:

التناسب الموضوعي: حيث ترتبط الآيات والسور بموضوعات معينة، مثل العقيدة، الأخلاق، القصص القرآني، والعبادات. هذا الربط يساعد القارئ على استيعاب المعاني بشكل أعمق.

التناسب اللغوي: يتمثل في استخدام أساليب بلاغية متنوعة مثل التشبيه والاستعارة والجناس، مما يضفي جمالاً على النص ويزيد من تأثيره.

التناسب الزمني والمكاني: يتناول القرآن أحداثًا تاريخية ومواقف معينة تتعلق بالزمان والمكان، مما يعكس حكمة الله في توجيه البشر عبر العصور.

التناسب بين الآيات والسور: حيث يمكن أن نجد تكرارًا لمواضيع معينة أو آيات تتكامل مع بعضها البعض لتعزيز الفهم العام للرسالة.

إن دراسة التناسب في القرآن تعزز من قدرة القارئ على التأمل والتفكير في معانيه وتطبيقاته الحياتية، مما يجعل من القرآن كتاب هداية شامل لكل زمان ومكان.

إن دراسة التناسب في سورة النساء ليست مجرد تحليل نصي بل هي دعوة للتأمل في القيم الإنسانية التي يدعو إليها الإسلام، والتي تظل صالحة لكل زمان ومكان. نسأل الله أن يوفقنا جميعًا لفهم كتابه والعمل بما فيه من هدى ونور.

سورة النساء هي الرابعة في ترتيب المصحف، فقد سبقتها سورة الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، وهي أطول سور القرآن بعد سورة البقرة وعدد آياتها: مائة وخمسة وسبعون، في عدد الكوفي، وست في عدد البصري، وسبع في عدد الشامي، وكلماتها: ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسة وأربعون، وحروفها: ستة عشر ألفًا وثلاثون حرفًا.

سبب التسمية :

سميت هذه السورة بسورة النساء ؛ لما ورد عن عائشة رضی الله عنها >> ما نزلت سورة البقرة وسورة النساء إلا وأنا عنده << وسميت كذلك في كتب الأوليين ولم يعرف لها اسما آخر ، لكن يؤخذ مما روى في صحيح البخاري عن ابن مسعود من قوله >> لنزلت سورة النساء القصوى << يعني سورة الطلاق - أنها شاركت هذه السورة في التسمية بسورة النساء ، وأن هذه السورة تميز عن سورة الطلاق باسم سورة النساء الطولى ، ولم أقف عليه صريحا (1)

وذكر البعض أنها تسمى النساء الكبرى ، واسم سورة الطلاق النساء الصغرى (2) وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود: «أنزلت سورة النساء القصوى بعد الطولى»(3)

سبب تسمية السورة وعلاقتها بالتناسب :

وسميت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الاحكام التي تتعلق بهن وهى أكثر السور حديثا عن النساء وأحكامهن فافتتحت بأحكام الرحم ثم أحكام تخص النساء ونظمت العلاقة بين الرجل والمرأة ' منها موضوع القوامة والنكاح والتعدد وحق المرأة في الميراث وأحكام الرضاعة والمحرمات من النساء وحثت على الفضيلة ونهت عن الرزيلة وزجرت عن إتيان الفاحشة .

"ووجه تسميتها بإضافة إلى النساء أنها افتتحت بأحكام صلة الرحم ، ثم بأحكام تخص النساء ، وأن فيها أحكام كثيرة من أحكام النساء : الأزواج ، البنات ، وختمت بأحكام تخص النساء" (4)

فالقران الكريم هو من أرسى هذه القواعد وأسسها فكان اسم السورة يتناسب مع مضمونها ومحتواها تناسبا لفظيا ومعنويا أما اللفظ فسورة النساء لأنها اشتملت على جميع أحكام النساء سواء في النكاح أو الإرث أو معنويا لأنها ردت لهن حقوقهن التي

(1)- الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير ن ج 4 ، ص 211
(2)- مجد الدين الفيروز ابادى : بصائر ذوى التمييز ، مطابع شركة الاعلانات الشرقية ، القاهرة ، 1384 ، ج 1 ، ص 16
(3) - محمد بن اسماعيل البخارى : صحيح البخارى ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، دار اليمامة ، دمشق ، الطبعة الخامسة ، 1414هـ-1993م ، (٤٩١٠) : ج ٦ / ص ٣٧٦ .
(4)- ابن عاشور: التحرير والتنوير ج 3 ص 212

غابت عنهن إما بسبب المجتمع أو الطمع مما جعلهن سلعة تورث فتكلمت السورة عن المجتمع بأسره وصفاته ومكانة المرأة

وظيفة التناسب في النظم القرآني :

محاولة الغوص في النظم القرآني لاكتشاف بعض الأسرار في الكلمات والجمل والآيات والسور ، مستخدماً أدواته لمعرفة أسباب التقديم والتأخير والذكر والحذف محاولاً الكشف عن الروابط والصلات بين الآيات والسور.

المحاور الرئيسية للسورة:

عند النظر في هذه السورة نجد أن الله بدأها بالنداء العام للناس جميعاً والأمر بالتقوى بعد التذكير بالخلق ، وذكر فيها اسمه الأعظم الله، وجملة من صفاته تعالى وأفعاله وهي: خلقكم، ربكم، رقيباً. أي: أن الله خلقنا وهو أعلم بما فيه صالحنا وما يصلحنا ويسعدنا، وبما يفسدنا ويشقىنا؛ (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وهو الرب الذي يربينا؛ وهو يراقبنا، وسيحاسبنا، فعلياً أن نتقيه، بأن نفعل أوامره وننتهي عما بنواهيه.

كما أوضح سبحانه بان الناس سواسية ؛ فقد خلقهم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، فكانوا بذلك سواسية وأخوة في إنسانيتهم وأصل خلقتهم، من ذكر وأنثى، لا فضل لأحد على أحد، فأباهم واحد وأمهم واحدة، وهذا دليل على تساوي الحقوق والمسؤوليات والحريات، مما يستلزم أن يتعاملوا فيما بينهم بالعدل والقسط وتقوى الله، والرحمة واجبة بينهم ، والكلمات التي لم تذكر إلا في هذه السورة مثل: أركسوا، مذبذبين، الأمانات، ثمن، سدس، ربع، تميلوا. والكلمات التي تكررت في هذه السورة أكثر من باقي السور، مثل: سبيل، مقيتاً، حسيباً، أموال، فضل، نصيب، أصاب، ثلث، المستضعفون، أطيعوا، وغيرها من الكلمات تتناسب مع مقصدها. ولما كان مقصودها الاجتماع على ما دعت إليه السورتان قبلها من التوحيد؛ وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل – عادة – الأرحام العاطفة؛ التي مدارها النساء؛ سميت "النساء"؛ لذلك؛ ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد؛ بسم الله ؛ الجامع لشتات الأمور؛ بإحسان التزاوج في لطائف المقدور؛ الرحمن

؛ الذي جعل الأرحام رحمة عامة؛ الرحيم؛ الذي خص من أراد بالتواصل على ما دعا إليه دينه؛ الذي جعله نعمة تامة.

لما ثبت أمر ذلك الكتاب؛ وظهر أنه الحق الذي لا ريب فيه،؛ وأظهر الله للناس طريق الهداية والرشاد وهو التوحيد؛ بعد ذلك أصبحت الحاجة ملحة إلى الاجتماع؛ فجاءت هذه السورة داعية إلى الاجتماع؛ والتواصل؛ والتعاطف؛ والتراحم؛ لذا كانت في بدايتها داعية إلى اجتماع الناس بلا تفرقة حتى في عقيدتهم، وذلك أنه لما كانت أمهات الفضائل - في علم الأخلاق - أربعا: العلم؛ والشجاعة؛ والعدل؛ والعفة؛ فصلها الله تعالى في سورة "لقمان" - عليه السلام -؛ وكانت "آل عمران"؛ داعية - مع ما ذكر من مقاصدها - إلى اثنتين منها؛ وهما: العلم؛ والشجاعة - كما أشير إلى ذلك في غير آية: نزل عليك الكتاب بالحق وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله فإذا عزمتم فتوكل على الله (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا؛ وكانت قصة "أحد"؛ قد أسفرت عن أيتام؛ استشهد مورثوهم في حب الله؛ وكان من أمرهم في الجاهلية منع أمثالهم من الإرث؛ جورا عن سواء السبيل؛ وضلالا عن أقوم الدليل؛ جاءت هذه السورة داعية إلى الفضيلتين الباقيتين؛ وهما العفة؛ والعدل؛ مع تأكيد الخصلتين الأخيرتين؛ حسبما تدعو إليه المناسبة؛ وذلك مثمر للتواصل بالإحسان؛ والتعاطف بإصلاح الشأن؛ للاجتماع على طاعة الديان؛ فمقصودها الأعظم الاجتماع على الدين بالافتداء بالكتاب المبين؛ وما أحسن ابتداءها بعموم: يا أيها الناس؛ بعد اختتام تلك بخصوص: يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا؛ الآية!⁽⁵⁾

وقد اشتملت هذه السورة على أنواع كثيرة من التكاليف؛ منها العطف على الضعاف؛ وقد كانوا في الجاهلية قد فقدوا هذه الميزة، بل ربوا على خلافها؛ لذا صارت في غاية المشقة على النفوس؛ كان افتتاح السورة واختتامها؛ بالحث عليها؛ قال:

اتقوا ربكم ؛ أي: سيدكم؛ ومولاكم المحسن إليكم بالتربية؛ بعد الإيجاد؛ بأن تجعلوا بينكم وبين سخطه وقاية؛ لئلا يعاقبكم بترك إحسانه إليكم؛ فكان البدء ببيان كيفية ابتداء الخلق؛ حثا على أساس التقوى؛ من العفة؛ والعدل؛ فقال: الذي ؛ جعل بينكم غاية الوصلة لتراعوها؛ ولا تضيعوها؛ وذلك أنه خلقكم من نفس واحدة ؛ هي أبوكم آدم ؛ وذكر بصفاته وأسماءه؛ تهيئا للعاصي؛ وترغيبا للطائع؛ توطئة للأمر بالإرث؛ وقد جعل – سبحانه – الأمر بالتقوى مطالعا لسورتين؛ هذه؛ وهي رابعة النصف الأول؛ و"الحج"؛ وهي رابعة النصف الثاني؛ وعلل الأمر بالتقوى في هذه بما دل على كمال قدرته؛ وشمول علمه؛ وتمام حكمته من أمر المبدأ؛ وعلل ذلك في "الحج"؛ بما صور المعاد تصويرا لا مزيد عليه؛ فدل فيها على المبدأ؛ والمعاد؛ تبيها على أنه محط الحكمة؛ ما خلق الوجود إلا لأجله؛ لتظهر الأسماء الحسنى؛ والصفات العلى؛ أتم ظهور يمكن البشر الاطلاع عليه؛ ورتب ذلك على الترتيب الأحكم؛ فقدم سورة المبدأ على سورة المعاد؛ لتكون الآيات المتلوة طبق الآيات المرئية.

وأبدع من ذلك كله؛ وأدق؛ أنه لما كان أعظم مقاصد السورة الماضية المجادلة في أمر عيسى؛ وأن مثله كمثل آدم – عليهما الصلاة والسلام –؛ وكانت حقيقة حاله أنه ذكر تولد من أنثى فقط؛ بلا واسطة ذكر؛ بين في هذه السورة بقوله – عطفًا على ما تقديره – جوابا لمن كأنه قال: كيف كان ذلك؟ -: "إنشاء تلك النفس"؛ أو تكون الجملة الحالية – وخلق منها زوجها ؛ أي: مثله في ذلك أيضا كمثل حواء؛ أمه؛ فإنها أنثى تولدت من ذكر؛ بلا واسطة أنثى؛ فصار مثله كمثل كل من أبيه؛ وأمه؛ آدم؛ وحواء؛ معا – عليهما الصلاة والسلام –؛ وصار الإعلام بخلق آدم؛ وزوجه؛ وعيسى – عليهم الصلاة والسلام –؛ المدرج تحت آية: بعضكم من بعض ؛ مع آية البث التي بعد هذه – حاصرا للقسمه الرباعية العقلية؛ التي لا مزيد عليها؛ وهي: بشر؛ لا من ذكر؛ ولا أنثى؛ بشر منهما؛ بشر من ذكر فقط؛ بشر من أنثى فقط؛ ولذلك عبر في هذه السورة بالخلق؛ وعبر في غيرها بالجعل؛ لخلو السياق عن هذا الغرض؛ ويؤيد هذا أنه قال (تعالى) – في أمر يحيى – عليه الصلاة والسلام -: كذلك الله يفعل ما يشاء ؛ وفي أمر عيسى – عليه الصلاة والسلام -: يخلق ما يشاء ؛ وأيضا فالسياق هنا

للتزهيب؛ الموجب للتقوى؛ فكان بالخلق الذي هو أعظم في إظهار الاقتداء - لأنه اختراع الأسباب؛ وترتيب المسببات عليها - أحق من الجعل؛ الذي هو ترتيب المسببات على أسبابها؛ وإن لم يكن اختراع - فسبحان العزيز؛ العليم؛ العظيم؛ الحكيم! (6)

وعند النظر إلى جميع ما ورد في هذه السورة من أحكام، وتشريعات، وقصص، وأسماء، وصفات، وكلمات مكررة كالحديث عن الميراث، والذرية، والتوبة، والنكاح، والأموال، والليت، والحسد، والقتال، وقصة عيسى عليه السلام، وقصص السرقة التي وقعت من مسلم ولأرادوا أن يجعلوها لمشرك، وقصة أهل الكتاب مع موسى، وأسماء الله الرقيب، والشهيد، والعليم، والعفو، والغفور، والرحيم، والوكيل، والحكيم، هي ذات صلة بمقصدها الذي هو تقوى الله ومراقبته الأحكام الواردة في السورة هي مسؤوليات وحقوق جعلها الله للإنسان على أخيه الإنسان المأمور بالتقوى. هي أحكام معاملات تستوجب مراقبة الخالق وتحكيم شرعه العادل، وتتعلق بمصائرهم. ثم إن باقي السورة احتوت على الأعمال التي غالباً ما يتعدى فيها الناس حدود الله نسياناً أو حبا للمال، وضربت بعض الأمثلة على تعدي أهل الكتاب والمنافقين لحدود الله، وهذا بغرض تحذير المؤمنين من سوء فعلهم وعدم تكرار ذلك.

- التشريعات الجديدة في السورة، والتي لم تذكر في غيرها من السور: التحذير من أكل أموال اليتامى، والحديث عن صداق المرأة، والخوف على الأبناء، والميراث، وتقسيمه، والنكاح الحلال والحرام، وأكل أموال الناس بالباطل، وتمني ما فضل الله به بعض الناس على بعض، والنشوز في الزواج، والإحسان إلى الوالدين، والأقرباء، والجيران، وابن السبيل، وما ملكت اليمين، والكبر، والفخر، وكتمان فضل الله، والرياء في الإنفاق. وذكرت الهجرة في أرض الله، وصلاة الخائف كما هذه الأشياء لها علاقة بالاستقامة على السبيل والتزام حدود الله.

وقد ذكرت بعض الأعمال التي لا يحبها الله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} (7)، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا} (8)، {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ} (9)، فالله لا يحب من كان مختالاً فخوراً، خواناً أثيماً، الجهر بالسوء، بينما في آل عمران ذكرت الأعمال التي يحبها الله والتي تفضي إلى محبته. بعض محاور السورة :

المحاور في السورة كثيرة لكنها تتفق وتتناسب فيما بينها حول حق الله تعالى ، وحق العبيد على اختلاف أحوالهم فبدأ بالضعفاء ؛ لأنهم أكثر الناس عرضة لضياح أموالهم ؛ لضعفهم ولطمع الناس فيهم ، فكانت الرحم أساس المعاملة ، فالناس جميعاً من أصل واحد من أب وأم واحدة ؛ فالواجب عليهم الرحمة والعدل والقسط ، وهذا أمر إلهي للمحافظة على المجتمع ، وأولى الناس بالعدل والرحمة هي الزوجة ، وبيان أن المجتمع لكي يعيش حياة هادئة مطمئنة لا بد له من أسس يسير عليها ، لذا كان الحديث عن المعاملات ، والطرق الصحيحة في العبادات ، والبعد عن كل ما يزعزع ثبات المجتمع من نفاق ، وظلم ، وطلاق ، وشقاق ، والدعوة إلى الإصلاح بين المتخاصمين وأولى الناس بذلك الصلح بين الزوجين ، وأقامة شرع الله بالتحاكم إليه .

1- الأمر بتوحيد الله تعالى ، وإفراده بالربوبية ، والألوهية ؛ فهو الرب الخالق المستحق للعبادة ، ووجوب تصحيح العقيدة ؛ بالتوسط فيها وذلك بعدم الغلو، أو المغالاة فلا إفراط ولا تفريط ، وأن من أراد النجاة في الآخرة فعليه بصحة الإيمان ، وملازمة تقواه ، الأمر بتقوى الله ومراقبته في كل الأفعال والأعمال (فإنك محاسب عليها)، فإن لم تكن تراقب الله فإنه يراقبك. فهو تعالى خلقك و قادر عليك، وهو ربك وضع لك حدوداً تراقبها ولا تتعدها، وهو مطلع عليك ومراقبك، فلا ينبغي لك أن تتخلف عن حيث أمرك، أو تتردد، ولا أن تظلم، ولا أن تتعدى حدوده، بل الواجب عليك أن تطيعه، وتتقيه، وتجاهد في سبيله بالنفس والمال. وتأكيد صحة نبوة النبي ، وبعد بيان العلاقة بين العبد وربه كان لزاماً بيان وتنظيم العلاقة بين الزوج وزوجته

(7) - سورة النساء : آية 36

(8) - سورة النساء : آية 107

(9) - سورة النساء : آية 148

، وبين جميع أفراد المجتمع ، بمراعاة المحتاج ، وعدم التساهل في حقوق الأرحام ، والرحمة في التعامل ؛ وهذا بالتذكير باليوم الآخر ومراعاة الرحمة بالضعيف واليتامى والنساء والاهتمام بالضعفاء .

2- بيان حركة تداول الأموال على اختلافها فتناولت بعض العلاقات المالية في المجتمع ، وطرق تنظيمها ، وكيفية التعامل معها ، وذلك مثل حماية أموال الضعفاء ، وحفظ حق الأولاد في الإرث ، وكذا كيفية المعاملات المالية ، وقواعد التعامل مع الغير ، والنهي عن أكل أموال النساء بالباطل ، والأمر رد الأمانات إلى أهلها ، وتقرير حق المرأة في الكسب ، والملك ، وبيان أحكام الكفالة .

3- قضايا النساء والدعوة إلى تطهير المجتمع الجاهلي من رذائل الجاهلية ، وأدرانها ، والتوصية بإعطاء الضعيف حقه وكذلك المرأة وعدم معاملتها كأنها إرث . وإعطاءها حقها في الحرية في اختيار زوجها ، وأمر بعشرتها بالمعروف وبيان كيفية التعامل معها في جميع الأحوال ، وفي حالة النشوز والإعراض والدعوة إلى المحافظة على الأسرة ، والبعد عن ما يهدد استقرارها ، والحث على محاولة الصلح بين الزوجين ، ليقوم المجتمع على أسس سليمة .

4- محاولة بناء دولة إسلامية والاهتمام بوضع أسس لهذه الدولة تنظم شئونها والتعامل بين أفرادها ، وبيان مقوماتها وإظهار التكليف الشرعية المرتبطة بها (العبادات صلاة وصيام وجهاد ، والمعاملات بيع وشراء ومعاملة غير المسلم ، وطاعة الله والرسول وأولى الأمر والنهي عن الكذب على الله والتحذير من النفاق وبيان خطورة المنافقين على المجتمع وأفعالهم ، وفضح أغراضهم من زعزعة استقرار المجتمع ، وبيان أحكام الجهاد والقتال والصلاة فيها ومن قتل بغير حق وبيان الهجرة .

5- العدل والرحمة وأولى الناس بذلك الزوجة في البيت ، وكذلك أولى القربي ، والتحذير من الظلم وتأصيل قضية الحكم في الإسلام ، وأسسها ، وبيان بأن الغرض من الأحكام الشرعية ليست المشقة بل إرشادهم إلى المنهج الصحيح ، وبيان الكثير من الأحكام الفقهية بيسر الشريعة ، والتيسير والتخفيف عن العباد ، ومراعاة أحوالهم من ضعف وقوة وسفر وإقامة وأحكام الموارث ، وبيان حرمة صلاة السكران في حالة

سكّره، ووجوب الاغتسال من الجنابة لمن أراد الصلّاة وكيفيته، ومشروعية التيمّم عند عدم الماء وفقده أو عدم القدرة على استخدامه وأحكامه، كما أوضحت السورة بعضاً من أحكام الجنايات، والديّات، مع بيان عظمّ دماء المؤمن، وجزاء من يقتل مؤمناً متعمداً، وغير ذلك من الأحكام الفقهية.

6- التحذير من الكذب على الله، وكشف خداع المنافقين وحيلهم، وبيان أنهم على علم بما يعملون، ولتحذير منهم، ومن التحاكم لغير الله، ومن اتخاذاً الشيطان والكافرين أولياء، وبيان المعادين للإسلام من كفار، ويهود، ومنافقين، والدعوة إلى طاعة الله والرسول، والطريق المستقيم.

العلاقة بين المضمون واسم السورة :

يقول البقاعى :اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، لأن اسم كل شيء

تلحظ المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال بالإجمال على تفصيل ما فيه. ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها وعلى قدر المقصود من كل سورة، تكون عظمتها، ويعرف ذلك مما ورد في فضائلها ويؤخذ من ذلك أسماؤها، ويدل على فضلها كثرتها.⁽¹⁰⁾

ومن عجائب هذا القرآن أنك تجد النص في محله يعطيك معاني كثيرة، والنص في سياقه الأقرب يعطيك معاني، والنص في سياقه القريب يعطيك معاني، والنص في سياقه الخاص يعطيك معاني، ولكل سورة محورها وسياقها اللذان يعطيان من عشر عليهما معاني كثيرة وكل ذلك حاولنا إبرازه في تفسيرنا، ثم إن لكل سورة مجموعتها، ولكل مجموعة سور سياقها، وللقرآن كله وحدته وسياقه العجيب المذهل الذي يعطيك معاني كثيرة .

سور القرآن وتشابك فيما بينها من معان وموضوعات ليظهر إعجاز القرآن في ترابط السورة بما قبلها وما بعدها، ومع السور المشتركة معها في الافتتاح، أو الموضوع

(10)- المصدر السابق، ص209

"اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن ؛ فهي جمهرته - وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدأت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعاطفت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأت أولها بآخرها ؟..

وأنا لك زعيم بأنك لن تجد ألبته في نظام معانيها أو مبادئها نا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبادئها ما تعرف به أكانت نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها قد نزلت نجوماً (11)

تناسب الالفاظ ودلالاتها مع محور السورة :

إنما استعير اسم الرحم للقرابة لأنهم خرجوا من رحم واحدة وقيل هو مشتق من الرحمة لأن القرابة يتراحمون ويعطف بعضهم على بعض. وفي الآية دليل على تعظيم حق الرحم والنهي عن قطعها (12)

ولما كان المال سببا للقيام بالمعاش سمي به إطلاقا لاسم المسبب على السبب على سبيل المبالغة لأنه به يقام الحج والجهاد وأعمال البر وفكك الرقاب من النار(13)

وجوه التناسب بين مطلع السورة وخاتمها :

بدأت سورة النساء بقوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ - وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1) } وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا { (14) وانتهت بقوله { يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُن لَهَا وُلْدٌ فَإِنْ كَانَتْ أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ

(11) - دراز : النبأ ، ص 154

(12) - الخازن : لبياب التأويل ، ج 1 ، ص 341

(13) - المرجع السابق ، ص 345

(14) - [سُورَةُ النِّسَاءِ: ٢]

مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {15}

فبدأت السورة بالحديث عن خلق الإنسان وبث ذريته في الأرض وانتهت بهلاكه ان امرؤ هلك فكأنها تقول حياة الإنسان ونهايتها بين يديه يسعد بها إن طبق أحكام الله فيها وبدأت بأمر من الله تعالى بإيتاء اليتامى أموالهم وانتهت بتقسيم التركة بل ما أعظم من ذلك أنها بدأت بالعدد الكثير وبث منهما رجالا كثيرا وانتهت بالعدم ان امرؤ هلك ليس له ولد كما انتهت الآية الأولى بقوله ان الله وانتهت السورة بقوله ان الله كان بكل شيء عليما وكأن السورة تظهر أنالأحكام ما بين رقابة الله وعلمه .

"افتتحت سورة النساء بدعوة الناس جميعاً إلى عبادة الله - عز وجل - وتقواه والوصية بالأرحام ثم بيان الحقوق والفروض الواجبة للورثة والوصية باليتامى والمساكين، وختمت السورة مؤكدة ما ورد في مطلعها من بيان حقوق الورثة والضعفاء وأن هذا التقسيم الذي ذكر تفصيله في ثنايا السورة بيانه من عند الله - عز وجل - الذي هو بكل شيء عليم" (16)

وقد تكون سورة النساء تفصيلاً وتوضيحاً لما جاء في سورة البقرة (وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية في أموال اليتامى كرهوا أن يخالطوهم، وجعل ولي اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله، فشكوا ذلك إلى النبي فأنزل الله: يسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم (17) قال: فخالطوهم. وأخرج البخاري، ومسلم:

" وأما وجه التناسب بينها وبين آل عمران فمن وجوه: منها: أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وافتتحت هذه السورة به ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهذا

(15) - [سُورَةُ النِّسَاءِ: 176]

(16) - البقاعى:نظم الدرر ، ج13. ص101

(17) - سورة البقرة آية 220

من أكبر وجوه المناسبات في ترتيب السور⁽¹⁸⁾ وهو نوع من البديع يسمى: تشابه الأطراف⁽¹⁹⁾ فالقرآن كأنه سورة واحدة يكمل بعضه بعضا ، ويتماسك فيما بينه كأنه نسيج واحد وكتلة واحدة .

-ومنها :أن سورة آل عمران ذكر فيها قصة أحد مستوفاة وذكر في هذه السورة ذيلها وهو قوله: "فما لكم في المنافقين فئتين" ⁽²⁰⁾ فإنها نزلت لما اختلف الصحابة فيمن رجع من المنافقين من غزوة أحد كما في الحديث ومنها: أن في آل عمران ذكرت الغزوة التي بعد أحد بقوله: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ⁽²¹⁾ وأشير إليها هنا بقوله: "ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون"⁽²²⁾ وبهذين الوجين عرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها عليها في مصحف ابن مسعود لأن المذكور هنا ذيل ما في آل عمران ولاحقه وتابعه فكانت بالتأخير أنسب⁽²³⁾.

ومنها ختام سورة آل عمران كان الحديث عن الفلاح وأسبابه بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ⁽²⁴⁾ وافتتحت النساء بالأمر بالتقوى لأنه طريق الفلاح بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ ⁽²⁵⁾ هو يوم حمراء الأسد، وكان عقب أحد، وكان الكفار قد ندموا أن لم يدخلوا المدينة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب المسلمين للخروج على ما بهم من جراح؛ ليربهم أن بهم قوة وجلداً.⁽²⁶⁾

(18) - المرجع السابق

(19) - وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله وهو علم من علوم البديع من المحسنات المعنوية

(20) - سورة النساء: 88

(21) - سورة آل عمران: 172

(22) - سورة النساء: 104

(23) - شهاب الدين محمود الألوسي (ت1270هـ) : روح المعاني في تفسير القرآن الكريم ، تحقيق على عبد البارى عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى 1415هـ ج 2 ص 389

(24) - «سورة آل عمران: ٢٠٠»

(25) - «سورة النساء: ١».

(26) - البخارى : صحيح البخارى ، ج 5 ، ص 130

ومن الوجوه في ذلك أيضا: اشتراكهما في التسمية بالزهرابين في حديث: «اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران»⁽²⁷⁾ ، فكان افتتاح القرآن بهما نظير اختتامه بسورتي الفلق والناس، المشتركتين في التسمية بالمعوذتين من أمعن النظر في سورة النساء، وجد كثيرا مما ذُكر فيها مفصلاً لما ذُكر في سورة آل عمران، وبذلك يظهر مزيد الارتباط، وغاية الاحتباك بين السورتين الكريميتين.

المناسبة بين سورة النساء وسورة المائدة :

كلا السورتين بدأت بالنداء لكن في النساء كان النداء عاما ، وفي المائدة كان خاصا للمؤمنين ؛ مع إن الحديث في النكاح في سورة النساء كان خاصا للمؤمنين، والمؤمنات ؛ ولكن في المائدة كان عاما للمؤمنات وغيرهن ، وذلك ليربط السورتين ببعضهما ، فكأنهما يكملان بعضهما البعض ، وهذا هو الغالب في سور القرآن .

في سورة النساء كان الحديث فيها عن ذكر الخمر مجملا، وحرمة الصلاة للسكران تمهيدا وجاءت المائدة فحرمته أبدا ، فكانت النساء تمهيدا لحرمتها.

- الحديث في النساء عن بعض أحكام الصلاة والطهارة والحديث في المائدة عن الطهارة تفصيلا لذا تجد أن في المائدة زيادة كلمة منه وذلك لأن النساء فيها بعض أحكام الطهارة فالأحسن فيها إيجاز الحذف ، أما المائدة فالحكم كام فحسن فيه الإطناب .

- تضمنت سورة النساء كثيرا من المعاملات ، والعقود كالنكاح والصداق وجاءت سورة المائدة للإيفاء بهذه العقود. ثم فصل في سورة المائدة أحكام السرقة، وقطاع الطريق؛ لتعلقهم بالذهب والفضة الواقع ذكره في آية آل عمران بعد النساء والبنين، ووقع في سورة النساء إشارة إلى ذلك في قسمة الموارث .⁽²⁸⁾

(27) - النووي : شرح صحيح مسلم برقم «٨٠٤» وغيره، والزهرابان: أي المضيفتان، واحدتها زهراء. انظر: «اللسان» «زهر».

(28) السيوطي : تناسق الدرر ، ص75

- أخبر سبحانه في آخر النساء عن اليهود ، ونقضهم للعهد والمواثيق ، وأن الله حرم عليهم طيبات { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا } (29)

- في خاتمة النساء تنظيم العلاقة المالية وتقسيم الإرث وفي أول المائدة تنظيم العلاقة مع الآخرين ، ومع أفراد المجتمع ، والطبيعي أن يبدأ بالأقربين ثم البقية . (30)

- خاتمة النساء كانت في تقسيم الأموال ، وأول المائدة في صرف الأموال ، ابتداء من الأطعمة وهي أول ما يحتاج إليه الإنسان الطعام فذكر ما يحل له وما يحرم عليه (31)

- خاتمة النساء في هلاك الإنسان والاستفادة مما ترك وبداية المائدة في إهلاك الأنعام والاستفادة من صوفها ، ولحمها ، فالعلاقة المشتركة هي الاستفادة من المال أو الانعام .

- اشتملت السورتين على العدل والقسط والأمر بهما في النساء .

- النساء كانت للحديث على أن الأب واحد والحفاظ على الأسرة والأخوة وجاءت المائدة لتقبح الظلم والفساد وخاصة بين الإخوة { وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } (32)

- النساء كان الحديث عن التركة والميراث وما بقى بعد الموت والمائدة الحديث عن الوصية والشهادة عند الموت

- النساء كان الحديث فيها عن المال والمائدة الحفاظ عليها وحرمة السرقة { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (33) .

[29] - سورة النساء: ١٦٠

[30] - فاضل السامرائي - أحمد الكبيسي :لمسات بيانية لسور القرآن الكريم ، المكتبة الذهبية ، المجلد4، ص12

[31] - سورة المائدة: ٣

[32] - سورة المائدة: ٢٧

[33] - سورة المائدة: ٣٨

- يقول السيوطي (اشتملت النساء على عدة عقود صريحا ، وضمنا ، فالصريح)
عقود الانكحة ، وعقد الصداق ، وعقود الحلف)

ووجه آخر في تقديم سورة النساء، وتأخير سورة المائدة؛ وهو: أن تلك أولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ «النساء: ١»، وفيها الخطاب بذلك في مواضع، وهو أشبه بخطاب [الكفار وتنزيل] المكي، [وهذه أولها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفيها الخطاب بذلك في مواضع، وهو أشبه بخطاب المدني] وتقديم العام وشبه المكي أنسب.

البناء التركيبي للمفردات ودلالاتها وتناسبها مع محاور السورة :

وعند النظر إلى دلالات الألفاظ ، تجد أثر النظم ، وتناسب المعنى ، وتجد تناسق بين الألفاظ ، والمعاني ، والمقصود ومن ذلك :

قوله تعالى (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) يعني من أصل واحد وهو آدم أبو البشر وإنما أنت الوصف على لفظ النفس وإن كان المراد به الذكر وقال (واحدة) على تأنيث لفظ النفس. ولفظ النفس يؤنث وإن عني به مدكر. ويجوز في الكلام (من نفس واحد) وهذا على مراعاة المعنى، إذ المراد بالنفس آدم ، قاله مجاهد وقتادة. وهي قراءة ابن أبي عبيدة (واحد) بغير هاء. (34)؛ فالتأنيث هنا ليناسب الخليفة ، فالكلام عن النسل وليس عن آدم عليه السلام ، ومعلوم أن السورة تتكلم عن النساء وحقوقهن ، فتناسب الوصف مع المضمون .

إنما وصف الرجال بالكثرة دون النساء لأن حال الرجال أتم وأكمل وهذا كالتبنيه عن أن اللائق بحال الرجال الظهور والاستشهار وبحال النساء الاختفاء والحمول . (35)
فحال الرجال الظاهر فيه القوة ، وإنما حال النساء الظاهر فيه الضعف ، والكلام عن الضعفاء من مضمون السورة ، كما يدل ذلك على مراعاة الكثرة للغير ، فكأن الخطاب يا أيها الرجال الكثر اهتموا بالنساء . وقدم الرجال لأنهم المقصودون بالنداء وآخر النساء لكونهم المأمور بهن .

(34) - أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي(671 هـ) : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة ، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م ، ج٥ ، ص 5

(35) - الخازن : ليلاب التأويل ، ج 1 ، ص 341

وكرر ذكر التقوى للتأكيد على أهميتها وأنه أهل أن يتقى والتساؤل بالله هو كقولك أسألك بالله وأحلف عليك بالله واستشفع إليك بالله .

بدأت السورة بآية أمر الله فيها مرتين بالتقوى ، وتضمنت السورة أكثر من أمر بالتقوى ؛ لأن السورة تتكلم عن الأمانة والحقوق فالمال قد ينخدع الإنسان به ، ويوسوس له الشيطان بعدم رده ، فيذكرنا الله بمراقبته لنا ، ووجوب تقواه .

وعند النظر إلى ما يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعوا إليها ويبحث عليها، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجبا للتقوى وداعيا إليها؟

ذلك مما يدل على القدرة العظيمة. ومن قدر على نحوه كان قادرا على كل شيء، ومن المقدورات عقاب العصاة، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقى القادر عليه ويخشى عقابه، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم، فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها. أو أراد بالتقوى تقوى خاصة وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله، فقليل: اتقوا ربكم الذي وصل بينكم، حيث جعلكم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة. فيما يجب على بعضكم لبعض، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه. وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة.(36)

وارزقوهم فيها ولم يقل منها لأنه أراد اجعلوا لهم فيها رزقا والرزق من الله تعالى هو العطية من غير حد ولا قطع ومعنى الرزق من العباد هو الأجر الموظف المعلوم لوقت معلوم محدود وقولوا لهم قولا معروفا يعني قولا جميلا؛ لأن القول الجميل يؤثر في القلب ويزيل السفه وقيل معناه عدوهم عدة جميلة من البر والصلة.(37) فانظر إلى التلطف في القول ، وكأن الله يأمر كل من يتعامل مع اليتيم بالتلطف معه ، ومراعاة ألفاظه .

(36) - الزمخشري : الكشاف ، ج 1 ، ص 462

(37) - الخازن : لباب التأويل ، ج 1 ، ص 343